كامل كيلاني

قصص علمية

العنكب الحزين

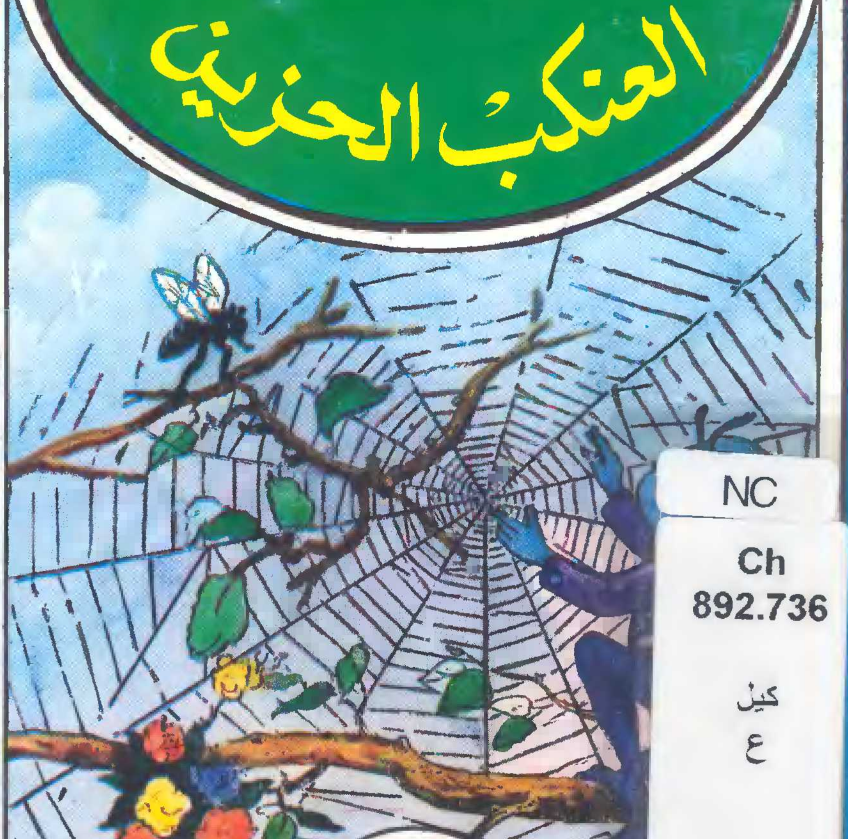

NC
Ch
892.736
كيل
ع

دار المعارف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة

كامل كيلانى

قصص علمية

العنكب الحزين

الطبعة العاشرة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

١ – حِوار الأَخويْن

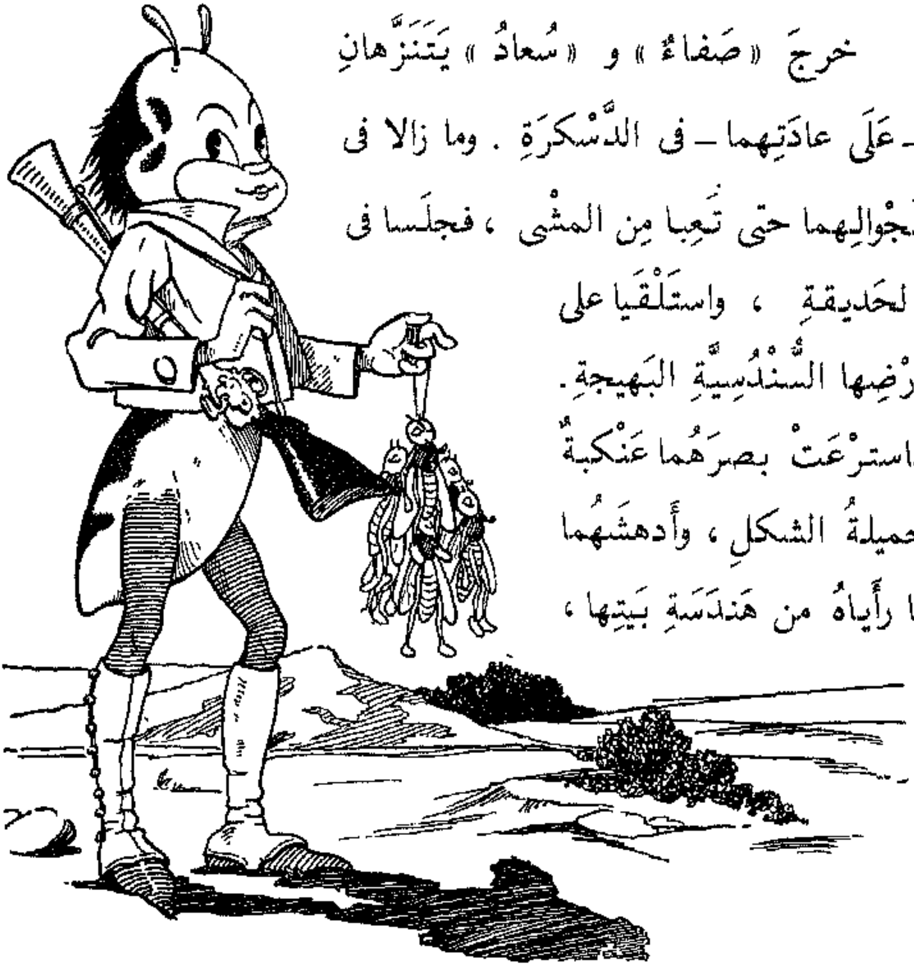

خرجَ «صَفاءٌ» و «سُعادُ» يَتَنَزَّهانِ ـ عَلَى عادَتِهما ـ فى الدَّسْكرَةِ . وما زالا فى تَجْوالِهما حتى تَعِبا مِن المشْى ، فجلَسا فى الحَديقةِ ، واستَلْقَيا على أَرْضِها السُّنْدُسِيَّةِ البَهيجةِ. فاسترْعَتْ بصرَهُما عَنْكبةٌ جميلةُ الشكلِ ، وأَدهشَهُما ما رأَياهُ من هَندَسَةِ بَيتِها ،

ودِقَّةِ خُيوطِهِ ، وبراعةِ نَسْجِهِ . وظَلَّا يَتَأَمَّلانِ بَيتَ العَنْكَبُوتِ الحاذِقَةِ ساعةً ، ويُنْعِمانِ النَّظَرَ والفِكْرَ فى دقائِقِ هٰذه النَّسَّاجةِ الذكيَّةِ ، الصَّناعِ اليَدِ ؛ ويُطيلانِ التَّأَمُّلَ فى بدائع المُهَنْدِسَةِ البارعَةِ المتفنِّنةِ . وقدِ امتلأَتْ نَفساهُما دَهَشاً وإعجاباً بِصَبْرِ هٰذِهِ الْحَشَرَةِ الضَّئيلَةِ ومُثابَرَتِها .

وصاحتْ «سُعادُ» :

«تبارَكَ الخَلَّاقُ العظيمُ !

أَلَيْسَ مِنَ العَجَبِ الْعاجِبِ أَنْ تَهتَدِىَ هٰذِهِ الحشرةُ الضَّئيلةُ إلى دَقائقَ من أَسرار الهنْدَسةِ ، يَحارُ فيها الْمُتَأَمِّلُ ويَنْبَهِرُ مِنها المُفكِّرُ ، ويقِفُ أَمامَها العَقْلُ مَدهوشاً ؟ »

فقالَ «صَفاءٌ» : «لَقَدْ تعلَّمَ الأَقْدَمُونَ مِنْ هٰذِهِ الْمخْلُوقَةِ الصَّغيرة ، كَيْفَ يَصْنَعونَ شِباكَهُم وحَبائلَهُم ، ليَصْطادوا بها أَسْرابَ الطَّيْرِ والْحَيَوانِ البَرِّىِّ والبَحْرِىِّ على السَّواءِ .

ولَعَلَّكِ تَذْكُرِينَ قِصَّةَ « الصَّيَّادِ الإفْرِيقِىِّ » الَّذِى كانَ يَصْطادُ الوُحوشَ بِرُمْحِهِ ، وكَيْفَ جَرَحَهُ أَحَدُها ، وأَلْقاهُ عَلَى الأَرْضِ.

وكَيف اسْتَرعَى بَصَرَ الصَّيَّادِ ما رَآهُ مِنْ بَراعَةِ أَحَدِ العَناكِبِ فى اصْطِيادِ الذُّبابِ ، ودَهِشَ لِقُدْرَتِهِ العَجِيبَةِ عَلَى نَسْجِ الشِّباكِ ، والْحَبائلِ المُحْكَمَةِ » .

فصاحَتْ « سُعادُ » : « صَدَقْتَ - يا أَخِي - لَقَدْ ذَكَرْتُ تِلْكَ الأُسْطُورَةَ الْجَمِيلَةَ الآنَ ، وذَكَرْتُ أَنَّ ذٰلِكَ الصَّيَّادَ نَسَجَ شِباكَهُ عَلَى مِنْوالِ العَنْكَبِ الذَّكِيِّ ، فاصطاد كثيرًا منْ أَسْرابِ الوَحْشِ .

ثُمَّ ارْتَقَى فى تقليدِ العَنْكَبِ ، فنَسجَ ثِياباً لهُ ولِزَوْجَتِهِ ولجيرانِهِ ، فأُعْجِبَتْ بالصَّيَّادِ عَشِيرَتُهُ ، واتَّخَذَهُ قَوْمُهُ زَعيماً لَهُمْ وأُسْتاذًا » .

فقالَ « صَفاءُ » : « لا تَنْسَيْ أَنَّه قالَ لِلْمُعْجَبِينَ به :

« إِنَّ أُسْتاذِي ومُرْشِدِي إِلَى هٰذا الِاخْتِراعِ الْجَلِيلِ هُوَ : العَنْكَبُ الذَّكِيُّ الصَّنَّاعُ ! »

فقالَتْ « سُعادُ » : « صدَقْتَ - يا أَخِي - وَسَأَرْجِعُ إِلَى الْجُزْءِ الأَوَّلِ من كتاب القِصَصِ الْجُغْرافِيَّةِ ، الَّذِى سَجَّلَ فيهِ أَبى تِلْكَ الأُسْطُورَةَ الْعَجِيبَةَ ، لِأَقرأَها مرَّةً أُخْرَى » .

فقالَ «صفاءٌ» :

«وَلَقَدْ قَصَّ عَلَيْنا أُسْتاذُ الإنشاءِ – في هٰذا العامِ – أَنَّ مَلِكاً منَ الأَقْدَمِين دَبَّ إِلى قَلْبِهِ دَبيبُ الْيَأْسِ ، بَعْدَ أَنْ هزَمَهُ العَدُوُّ ؛ فَجَلَسَ مُطْرِقاً ، حَزينَ الْقَلْبِ ، مُشَرَّدَ الْفِكْرِ .

وإِنَّهُ لَغارِقٌ في هُمومِهِ ، إِذْ حانَتْ مِنْهُ التِفاتَةٌ ؛ فرَأَى عَنكبةً تَنْسُجُ خُيوطَها ، وأَبْصَرَها تَقْذِفُ بأَحَدِ الْخُيُوطِ إِلى رُكْنِ الْغُرْفَة فَلا يَقَرُّ فيهِ ، فتُعِيدُ الكَرَّةَ ثانيةً وثالثةً ورابعةً بِلا جَدْوَى .

وما زالتِ الْعَنْكَبَةُ جادَّةً في تَحْقِيقِ غايَتِها ، دونَ أَن يَجِدَ الْيَأْسُ إِلى قَلْبِها سَبيلًا ، حتَّى ثَبَتَ الخَيْطُ في المَرَّةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ . فكانَ ذٰلِكِ النَّجاحُ – بَعْدَ المُثابَرَةِ – أَبْلَغَ دَرْسٍ يُعَلِّمُ المَلِكَ الْمَهْزُومَ فَضْلَ الأَناةِ والصَّبْرِ ، وَيُنْسِيهِ مَرارَةَ الهَزِيمَةِ وَأَلَمَ الْيَأْسِ . فَضاعَفَ مِن هِمَّتِه ، وَقَوَّى منْ عَزْمَتِهِ ، وما زالَ بِأَعْدائِه حتَّى

كُتِبَ لَهُ النَّصْرُ فى الْمَوْقِعَةِ الأَخيرَةِ .

وكانَ الفَضْلُ - فى ذٰلك النَّصْرِ - عائِدًا إِلَى اقْتِدَائِه بِالعَنْكَبةِ الْجادَّةِ المُجِدَّةِ المُثابِرَةِ !

٢ ـ حِوارُ أُمِّ «قَشْعَمٍ»

فقالَتْ «سُعادُ» :

«ما أَعجبَ أَمرهٰذه المَخْلوقَةِ الضَّئِيلَةِ ، الَّتى أَحرَزَتْ ـ عَلَى حَقارَةِ بِنْيَتِها ـ عقلًا كبيرًا ، وجَمَعَتْ حِذْقاً ومَهارَةً يُحَيِّرانِ الأَلْبابَ ! »

وَما أَتَمَّتْ «سُعادُ» جُمْلتَها ، حتَّى أَقْبَلَ أَخوها «رَشادٌ» الصَّغيرُ ، وفى يدِهِ عَصاً طويلَةٌ يَعْبَثُ بِها فى أَثْناءِ سَيْرِه ، حتى إذا اقْتَربَ من «سُعادَ» حانَتْ مِنْهُ الْتِفاتَةٌ ، فرَأَى العَنْكَبَةَ قَريبةً مِنْهُ ؛ فَهَمَّ بِتَحْطِيمِ بَيْتِها بِعصاهُ .

وأَدْرَكَ «صَفاءٌ» ما يَجُولُ بخاطِرِ أَخيهِ ، فأَمْسَكَ بِيَدِهِ ، وَحالَ بينَهُ وبينَ ما يُريدُ .

فَغَضِبَ «رَشادٌ» الصَّغيرُ ، وقالَ لِأَخِيهِ «صفاءٍ» وقَد سِيءَ وَجْهُهُ :

«لَقَدْ حَرَمْتَنى يا «صفاءُ» ، مُتْعَةً كانَتْ تَصْبُو إِلَيْها نَفْسى ـ ما كانَ ضَرَّكَ ـ يا أَخِى ـ لو أَطْلَقْتَ لى حُرِّيَّتى ، لأَلْهُوَ بهٰذِهِ الْحَشَرَةِ الضَّئيلةِ ، الَّتى لا شَأْنَ لها ولا خَطَرَ ؟ »

٣ ـ نشيدُ العنكبةِ

وَهُنا انْبَعَثَ مِنْ بينِ الْخُيُوطِ العَنْكَبِيَّةِ الدَّقيقةِ

صَوْتٌ خافِتٌ ، يقولُ : « هَوِّنْ عَلَيْكَ ، يا « رَشادُ » . أَنا لَسْتُ ـ كَما حَسِبْتَنِي ـ حَشَرَةً ضَئِيلَةً ، لا شَأْنَ لى وَلا خَطَرَ . إنَّ فَضْلَ الْعَناكِبِ على بَنِى الإِنْسانِ لجَدِيرٌ بالثَّناءِ . وَإِنَّ مَهارَتَنا فى النَّسْجِ ، وَمُثابَرَتَنا عَلَى العمَلِ ـ بِلا مَلالٍ وَلا كَلالٍ ـ قَدْ أَصْبَحَتْ مَضْرِبَ الأَمْثال . »

فَعَجِبَ « رشادٌ » وَأَخَواهُ مِمَّا سَمِعُوهُ مِنْ تِلْكَ العَنْكبَةِ الذَّكِيَّةِ ، واسْتَوْلَتْ عَلَيْهِم الْحَيْرَةُ ، وَتَمَلَّكَهُمُ الدَّهَشُ .

وإِنَّهُمْ لَغارِقُونَ في ذُهُولِهِم مِمَّا سَمِعُوهُ ، إِذا بِالْعَنْكَبَةِ في الشَّعِّ (وَهُوَ بَيْت الْعَناكِبِ) تُغَنِّي بِصَوْتٍ واضِحِ النَّبَراتِ :

« مَهارَةُ الْعَناكِبِ أَعْجَبُ شيْءٍ عاجِبِ
هَنْدَسَةٌ دَقِيقَةٌ تَبْهَرُ عَقْلَ الْحاسِبِ
دائِبَةُ السَّعْيِ ، وَما يَفُوزُ غَيْرُ الدَّائِبِ
جاثِمَةٌ - في بيْتِها - لِحاضِرٍ ، وَغائِبِ
تَرْقُبُ كلَّ زائِرٍ ، مِنْ قادِمٍ ، وَذاهِبِ
تُوقِعُ - في شِباكِها - كلَّ غَبِيٍّ خائِبِ
تَرَى بِعَينٍ لا تَنِي تَرَى بِفِكْرٍ ثاقِبِ
بارِعَةٌ - في كَيْدِها - سَدِيدَةُ المَذاهِبِ
ناسِجَةٌ خُيوطَها عَلَى مِثالٍ صائِبِ
كَثِيرَةٌ أَرْجُلُها ، طَويلَةُ الْمَخالِبِ
لَها عُيُونٌ جَمَّةٌ ، تَرْنُو بِلا حَواجِبِ
وَهْيَ - إِذا دَرَسْتَها - عَجِيبَةُ الْعَجائِبِ ! »

٤ ـ قاتِلةُ الزُّنْبارِ

اشْتَدَّ عَجَبُ الإخْوَةِ الثَّلاثَةِ مِمَّا سَمِعُوا ، وَأَقْبَلُوا عَلَى الْعَنْكَبَةِ الذكِيَّةِ مُنْصِتِينَ إلَى حَدِيثِها الْمُعْجِبِ . فاسْتَأْنَفتْ قائِلَةً :

«أَصْغِ إلَيَّ ، يا «رشادُ» : أَلا تَعْرِفُ أَنَّنِى قَدْ أَسْدَيْتُ إلَيْكَ صَنيعاً لا يُنْسَى ؟ أَلا تعْلَمُ أَنَّنِي أَنْقَذْتُكَ مِنْ لَسْعَةِ زِنْبارٍ شَرِس ، كانَ يَهُمُّ بِإيذائِكَ ، فِى الأُسْبُوعِ الْماضِى ؟ »

فَقال لَها «رَشادٌ» وأَخَواهُ مُتَعَجِّبِينَ :

«أَىَّ زِنْبارٍ تعْنِينَ ، أَيَّتُها العنْكَبَةُ الكَرِيمَةُ ؟ »

فَقالتِ العَنْكَبَةُ مَزْهُوَّةً تَيَّاهَةً :

« لمَحْتُ ـ منذُ أَيَّامٍ ـ زِنْبارًا خَبيثاً ، يَطِنُّ طَنِيناً مُزْعِجاً . رأَيْتُهُ يقْتَرِبُ مِنْ «رَشادٍ» ويَهُمُّ بِلَسْعِهِ ، فتَرَبَّصْتُ بِهِ الدَّوائرَ ، وَصَبَرْتُ عَلَيْهِ ، حتَّى اقْتَرَبَ مِنْ شِباكِى . وَما زِلْتُ به أُخادِعُه وأُغْرِيه ، حَتَّى وَقَعَ فى حَبائلى أَسيرًا ، وظَفِرْتُ به بعدَ عَناءٍ شديد . ثُمَّ أَنْشَبْتُ فيه مَخالِبِى ، وَنَفَثْتُ فى جِسْمهِ من سُمِّى ، حتَّى خَدِرَتْ أَعْصابُه ، وَتَمَّ لِىَ افتراسُهُ . وكانَ لى أَشْهَى طَعامٍ أَكلتُه فى ذلك اليَوْمِ » .

* * *

فصفّق الإخوةُ الثّلاثةُ ، لِما سَمِعُوا مِنْ حَدِيثِ العَنْكبةِ ، وَأُعْجِبُوا بِبراعَتِها وَحِذْقِها . ثُمَّ قالَ لَها « صَفاءُ » :

« أَنْتِ أَسْدَيْتِ إِلَيْنا صَنيعاً نَذْكُرُهُ لَكِ ، أَبَدَ الدَّهْرِ . وَسَنَتَّخِذُكِ لَنا صَدِيقَةً ، مُنْذُ اليوم . فَماذا أَنْتِ قائلَةٌ ؟ »

فَقالَتِ العَنْكَبَةُ : « ما أَسْعَدَنى بِصَداقَتِكُم ، أَيُّها الإِخْوَةُ المُتَحابُّونَ . سَأَكُونُ لَكُمْ خَيْرَ صَدِيقٍ تَأْنَسُونَ به ، وَتُخْلِدُونَ إِلَيْهِ . »

فَقالَ لَها « صَفاءُ » : « شُكْرًا لكِ - أَيَّتُها العَنْكَبَةُ الظَّرِيفَةُ - عَلَى كَرِيمِ تَلَطُّفِكِ ، وَمَوْفورِ أَدَبِكِ . فَهَلْ أَنْتِ مُتَفَضِّلةٌ عَلَيْنا ، فَذاكِرَةٌ لَنا كُنْيَتَكِ ، لِنُكَرِّمَكِ بِها ، كُلَّما نادَيْناكِ ؟ »

فَقالَتِ العَنْكَبَةُ : « كانَتْ أُمِّى « الرُّتَيلاءُ » تُنادِينى - مُنذُ وَلَدَتْنى - بِأُمِّ قَشْعَمٍ . »

٥ - مَوْلِدُ العنكبةِ

فَقالَ « صَفاءُ » : « وَأَيْنَ أُمُّكِ الرُّتَيْلاءُ العزِيزَةُ ، أَيَّتُها الصَّدِيقة الْمُؤْنِسَةُ ؟ »

فقالتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « ماتَتْ أُمِّى « الرُّتَيْلاءُ » ، بعدَ أن خرَجْتُ من بَيْضَتِى . لم أَنعَمْ بها بعد ذلك اليوم . »

فصاحتْ « سُعادُ » : « كيفَ تَذْكُرِينها – يا « أُمَّ قَشْعَمٍ » – وأنتِ لم تَرَيْها فى حياتِكِ قَطُّ ؟ »

فقالت « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « أَنا رأَيتُها ، حينَ خرجْتُ منَ البيضةِ . إنَّنا – مَعشرَ العَناكِبِ – نَخْرُجُ مِنَ البَيْضَةِ ، راشِدِينَ ، مُكْتَمِلِى الْخِلْقَةِ . هٰذا هُوَ شَأْنِى وَشَأْنُ بناتِ جِنْسى جميعاً . »

فَقالَتْ « سُعادُ » : « هَلْ وَضَعتْ أُمُّكِ « الرُّتَيلاءُ » بَيْضَةً واحِدَةً ، هِىَ الَّتِى خَرَجْتِ مِنْها ، يا أُمَّ قَشْعَمٍ ؟ »

أَجابَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » ضاحِكَةً : « كَلَّا ، يا « سُعادُ » . أُمِّى وَضَعتْ أَربَعين بَيْضةً . أَنا كنتُ إِحْدَى مَوْلُودِيها الْكَثِيرِينَ! »

فَصاحَ « رَشادٌ » : « كَيْفَ تَبِيضُ أُمُّكِ مِثْلَ هٰذا القَدْرِ الْعَظِيمِ ؟ »

قالَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « إِنَّنا – مَعْشَرَ الْعَنْكَباتِ – نَبِيضُ مِنْ عَشْرِ بَيْضاتٍ إِلَى مِائةِ بَيْضةٍ . وَقَدْ يَبْلُغُ ما يَبِيضُهُ بَعْضُ بَناتِ جِنْسِنا ثَمانِمِائَةِ بَيْضةٍ . فَإِذا أَفْرَخَ الْبَيْضُ ، خَرَجَتِ الْعَناكِبُ

إلى الْجُعْدُبةِ (بيْتِ العَناكِبِ) نامِيَةَ الْخِلْقَةِ . وَلا تَزالُ تَنْمُو ، مُتَدَرِّجةً فِى نَمائِها ، حَتَّى تُصْبِحَ مِثْلَ أُمَّاتِها . »

فَقالَ «صَفاءٌ» : «أَنْتِ أَخبَرْتِنا أَنَّ أُمَّكِ «الرُّتَيْلاءَ» ماتَتْ بَعْدَ أَنْ خَرَجْتِ أَنْتِ مِنَ البَيْضَةِ . فَخَبِّرِينى : أَذٰلكِ شَأْنُ أُمَّاتِ الْعَناكِبِ دائِماً ؟ هَلْ تَمُوتُ الْأُمَّاتُ بَعْدَ فَقْسِ الْبَيْضِ ، كَما ماتَتْ أُمُّكِ ؟ »

فَقالَتْ «أُمُّ قَشْعَمٍ» : «إِنَّ أَكْثَرَ الْعَنْكَباتِ يَهْلِكْنَ بَعْدَ أَنْ يَضَعْنَ البَيْضَ ، أَو عَقِبَ تربيَةِ أَطْفالِهِنَّ النَّاشِئِينَ .

على أَنَّ بَعْضَنا قَدْ يُعَمَّرُ أَرْبَعَ سَنَواتٍ كامِلَةً . »

ثُمَّ اسْتَأْنَفَتِ العَنْكَبَةُ قائلَةً : «مَتَى وَضَعَتِ العَنْكَبَةُ البَيْضَ ، نَسَجَتْ حَوْلَهُ غِلافاً لِوِقايَتِه مِنَ الْأَحْداثِ وَالْخُطوبِ . فإذا تَمَّ فَقْسُ الْبَيْضِ ، خَرَجَتْ مِنْهُ العَنْكَباتُ والعَناكِبُ مُسْتَقْبِلَةً الْحَياةَ ، وَقُلُوبُهُنَّ مَمْلُوءاتٌ أَمَلاً وَرَجاءً ، وَنُفُوسُهُنَّ مُفْعَماتٌ بِحُبِّ الْعَمَلِ وَالْمُثابَرَةِ . »

فَقالَتْ «سُعادُ» : «أَراكِ تُقَسِّمِينَ أَبْناءَ «الرُّتَيْلاءِ» إِلَى :

عَنْكَبات ، وَعَناكِبَ . فَخَبِّرِينا ، يا «أُمَّ قَشْعَمٍ» : أَىُّ فَرْقٍ بَينَ الذَّكَرِ والْأُنْثَى ؟ »

فَقالَتْ «أُمُّ قَشْعَمٍ» : «إِنَّ العَنْكَبَةَ أَكْثَرُ نَفْعاً ، وَأَعَمُّ فائِدَةً ، وَأَوْفَرُ عَمَلًا ، مِنْ أَخيها العَنْكَبِ ؛ لأَنَّها تُؤَدِّى مِنْ جَلائِلِ الأَعْمالِ ما لا يُؤَدِّيهِ. فَهِىَ تَغْزِلُ ، وَتَنْسُجُ بَيْتَها ، وَتَقُومُ بِكُلِّ ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ الأُسْرَةُ. أَمَّا العَنْكَبُ ، فَهُوَ لا يَنْشَطُ إِلَى النَّسْجِ إِلَّا مُضْطَرًّا ، وَهُوَ أَقَلُّ صَبْرًا عَلَى العَمَلِ ، واحْتِمالا لِلمُثابَرَةِ ، كَما أَنَّهُ أَصْغَرُ جِسْماً ، وَأَقَلُّ قُوَّةً . »

٦ ــ نَشْأَةُ «أُمِّ قَشْعَمٍ»

فَقالَ «صَفاءٌ» : «أَيْنَ وُلِدتِ ، يا أُمَّ قَشْعَم ؟ »

قالَتِ العَنْكَبَةُ : «أَنا وُلِدتُ فِى بَيتِ عَمِيدِ هٰذه القَرِيَةِ ، حَيْثُ نَسَجَتْ أُمِّى «الرُّتَيلاءُ» بَيتَها الجَميلَ ، فِى إِحْدَى الغُرَفِ الْمَهْجُورَةِ . وَظَلِلْتُ وإِخوتى نَسْكُنُ هٰذا البَيْتَ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّنا ، حَتَّى جاءَ خادِمٌ خَبِيثٌ زَلْزَلَ بَيْتَنا فِى لَحْظَةٍ واحِدَةٍ ؛

فأعَدْتُ نَسْجَ الْبَيْتِ – مِنْ جَدِيد – بَعْدَ ساعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ . فَلَمَّا جاءَ الْغَدُ ، عادَ إِلَيْنا الْخادِمُ الشِّرِّيرُ ، فنقَضَ بَيْتَنا مَرَّةً أُخْرَى . فَهَجَرْتُ ذٰلِكَ المَكانَ إِلَى حافَةِ النَّهَرِ . ونَسَجْتُ لِى بَيْتاً جمِيلًا فى ثَنايا إِحْدَى الأَشْجارِ . ومَا لَبِثْتُ فِيهِ أُسْبُوعَيْن ، حَتَّى رَأَيْتُ بَعْضَ الضَّفادِعِ يَأْتَمِرُ بِى لِيَقْتُلَنِى . فَهَجَرْتُ بَيْتِى إِلَى جِدارٍ قَدِيمٍ مَهْجُورٍ ، حَيْثُ بَنَيْتُ لِى دارًا أَنِيقَةً . ولٰكننى لَمْ أَستقرَّ فيها حَتَّى رَأَيْتُ جَماعَةً مِن كِبارِ البِرَصَةِ تَأْتَمِرُ بِى لتَقْتُلَنِى ، فهَرَبْت مِنْها ، وَآثَرْتَ السَّلامَةَ والعافِيَةَ . وَما زِلْتُ أَمْشِى ، حَتَى ساقتْنِيَ المَقادِيرُ إِلَى هٰذِهِ الحَدِيقَةِ الجَمِيلةِ ، حَيْثُ بَنَيْتُ هٰذا الْبَيْتَ الفاخِرَ ، الذى تَرَوْنَه أَمامَكُمْ ! »

٧ – سِباعُ العَناكِبِ

فَقالَتْ « سُعادُ » : « أَتَمَنَّى لَكِ عِيشَةً راضِيةً ، يا « أُمَّ قَشْعَمٍ » . وَأُحِبُّ أَن تُخْبرِينى – أَيَّتُها الْعَزِيزَةُ – كَيْفَ تَخْشَيْنَ البِرَصةَ ؟ إِنَّ أَحَدَ الْمُدَرِّسِينَ أَخْبَرَنا فِى بَعْضِ دُرُوسِهِ أَنَّكُم – مَعْشَرَ العناكِب – تَأْكُلُونَها ؟ »

فَقالَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « صَدَقَ المُدَرِّسُ . إنَّ بعْضَ بَناتِ جِنْسِنا ـ مِنْ كِبارِ الْعَناكِبِ ـ يَفْتِكْنَ بِالبِرَصَةِ ، كَما يَفْتِكْن بِكِبارِ الْحَشَراتِ ، وَصِغارِ العَصافِيرِ . »

فَقالَ « صَفاءُ » : « صَدَقْتِ ، يا « أُمَّ قَشْعَمٍ » . إنَّ الأُستاذَ حدَّثنى أَنَّ نَوْعاً مِنْ سِباعِ العَناكِبِ النَّاشِئَةِ فى بِلادِ « البَرازِيلِ » ، تَصْدُقُ عَلَيْهِ هٰذِهِ الأَوْصافُ التى تَذْكُرِينَها . »

فَقالَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « حَدَّثَتْنا بَناتُ « الرُّتَيْلاءِ » عَنْ هٰذه العَنْكَباتِ الَّتى وَصَفْتُها لَكَ ، يا « صَفاءُ » . وهى ـ كَما قُلْتُ ـ مِنْ سِباعِ الْحَشَراتِ . »

٨ ـ مَزايا العَناكِبِ

فَقالَتْ « سُعادُ » : « إنَّ جِسْمَكِ ـ فِيما أَرَى ـ ناعِمُ الْمَلْمَسِ ، لَسْتُ أَذْكُرُ أَنَّنى رَأَيْتُ حَشَرَةً تُشْبِهُكِ فى هٰذه المِيزَةِ . »

فَقالَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « إنَّ اللهَ مَيَّزَنا ـ مِن بَيْنِ الْحَشَراتِ كلِّها ـ بنُعُومَةِ الجِسْمِ ، وَخَصَّنا بهٰذِهِ المِيزَةِ ، عَلَى آخْتِلافِ أَنواعِنا ، وَتَبايُنِ أَجْناسِنا ، وَتَفَرُّقِ أَوْطانِنا .

وَجَعَلَ أَجْسامَنا مُؤَلَّفَةً مِنْ حَلَقاتٍ ، لا تكادُ تَراها الْعَيْنُ ، لِتَقارُبِ بَعْضِها مِنْ بَعْضٍ! »

فَقالَتْ « سُعادُ » : « أَسْمَعُكِ تَقُولِينَ : إِنَّكُمْ مُخْتَلِفُو الأَجْناسِ . فَهَلْ تَعْنِينَ أَنَّ بَعْضَ العَناكِبِ يَخْتَلِفُ عَنْ بَعْضٍ؟ »

فَقالَتْ « أُمُّ قَشْعَمٍ » : « ما فى ذٰلِكَ رَيْبٌ ، يا « سُعادُ » . إِنَّنا ــ مَعْشَرَ العناكِبِ ــ أَنواعٌ كثيرةٌ لا تُحْصَى . فمِنَّا مَنْ يَتَّخِذُ لهُ جُحْرًا يَحْفِرُهُ فى الأَرْضِ ، وَيُخفيهِ عَنِ العُيُونِ ، وُيقيمُ فِيهِ طُولَ يَوْمِه . فإِذَا أَمْسَى ، فتَحَ بابَ الْجُحْرِ ، وَخَرجَ مُلْتَمِساً رِزْقَهُ ؛ حَتَّى إِذا شَبِعَ ، عادَ إِلى جُحْرِهِ ، وَأَقامَ فِيهِ بَعيدًا عَنْ عُيُونِ الرُّقَباءِ .

ومِنَّا مَن يَبْنِى بُيوتَهُ فى البساتينِ ، أَوْ فى بُيوتِ النَّاسِ . ومِنَّا مَن يَبْنِيها فَوْقَ مَسارِب المِيَاهِ ، وَيَنْسجُ خُيُوطَهُ الطَّوِيلةَ عَلَى شَجَرَتَيْنِ مُتقابلتَينِ مِنَ الشَّاطِئينِ .

أَمَّا عُيونُنا فَهِى لا تتحَرَّكُ كَما تَتَحَرَّكُ عَيْنا الإِنْسانِ ؛ وَلِهٰذا جعَلَ لَنا اللهُ ــ سُبحانَهُ ــ كَثيرًا مِنَ العُيُون ، لنَرَى بها كُلَّ ما يَكْتَنِفُنا مِنَ الأَشْياءِ .

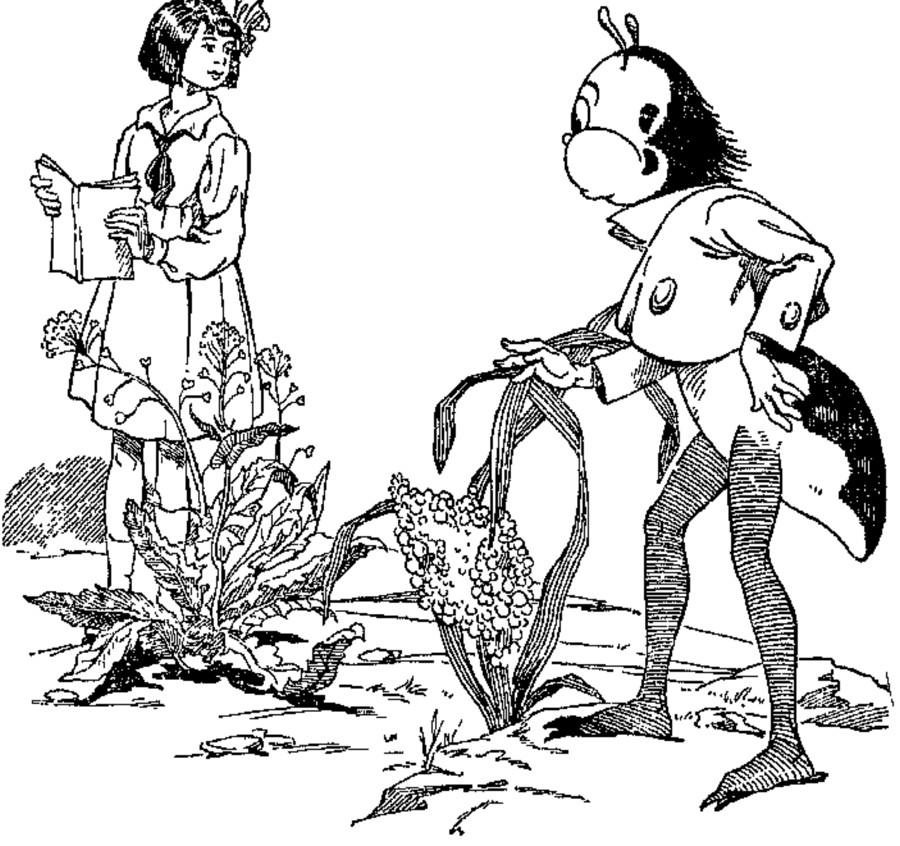

وَقَدْ وَهبَ اللهُ لِبَعْضِنا عينَيْن ـ كَما وَهَبَ لَكُم مَعْشَرَ النَّاسِ ـ ووَهب لِلْبَعْضِ الآخرِ عُيوناً أَرْبعاً ، ووَهَبَ لِفَريقٍ ثالِثٍ : عُيوناً ستًّا ، أَو ثَمانِيَ ، أَو عَشْرًا ، أَو آثْنَتَيْ عَشْرةَ . »

فَصاحَ «رَشادٌ» : «ما أَطْوَلَ أَرْجُلَكِ ، يا أُمَّ قَشْعَم ! »

فَضَحِكتِ الْعَنكَبَةُ قائِلَةً : « لا يُدْهِشَنَّكُمْ طُولُ أَرْجُلِي – أَيُّها الْإِخوَةُ الْأَعِزَّاءُ – فَقَدْ خَلَقَها اللهُ كَذٰلِكَ لِتُساعِدَنِي عَلَى الْجَرْيِ فِي خِفَّةٍ نادِرَةٍ . وَقَدْ مَيَّزَنا اللهُ – سُبْحانَهُ – بِالنَّشاطِ وَالسُّرْعَةِ .

وَلَوْ تَأَمَّلْتُمْ مَخالِبِيَ الْقَوِيَّةَ ، لاشْتَدَّ عَجَبُكُمْ ، وَأَنْسَتْكُمْ دَهْشَتُكُمْ مِنْها كُلَّ شَيْءٍ . »

فَقالَتْ «سُعادُ» : «وَأَيُّ مِيزَةٍ فِي هٰذِهِ الْمَخالِبِ الَّتِي تَزْهَيْنَ بِها؟ »

فَقالَتِ الْعَنْكَبَةُ : « لَقَدْ خَصَّنِيَ اللهُ بِها ، لِيُمَكِّنَنِي مِنَ الْفَتْكِ بِالْحَشَراتِ الضَّارَّةِ ، الَّتِي تُؤْذِيكُمْ ، وَتُنَغِّصُ عَلَيْكُمْ حَياتَكُمْ . وَلَوْلانا لامْتَلَأَتِ الدُّنْيا بِتِلْكَ الْحَشَراتِ الَّتِي تُهْلِكُ حَرْثَكُمْ ، وَتَعِيثُ فِي أَرْضِكُمْ وَحُقُولِكُمْ فَسادًا . »

فَقالَتْ « سُعادُ » : « لَقَدْ خَلَقَكُمُ اللهُ – مَعْشَرَ الْعَناكِبِ – رَحْمَةً بِالنَّاسِ . فَما بالُكُمْ لا تَنْتَشِرُونَ فِي بِلادِ الْأَرْضِ كُلِّها ، لِتَقْضُوا عَلَى الْحَشَراتِ الْمُؤْذِيَةِ ؟ »

فَقالتِ الْعَنْكَبَةُ : « إِنَّنا قَلَّما يَخْلُو مِنا بَلَدٌ ، أَوْ بَيْتٌ ، أَوْ حَقْلٌ ؛ مِنْ خَطِّ الِاسْتِواءِ إِلَى أَقاصِي الشَّمالِ . وَلَوْلانا لامْتَلَأَ الْجَوُّ بِالذُّبابِ وَالْبَعُوضِ ، وَأَشْباهِها مِنَ الْحَشَراتِ الْمُؤْذِيَةِ . »

فَقالَ «رَشادٌ» : «فَما بالُكِ تَأْلَفِينَ الْأَماكِنَ الْقَذِرَةَ ، وَالْأَرْجاءَ الْمَهْجُورَةَ ، وَتُؤْثِرِينَها عَلَى الْجِهاتِ النَّظِيفَةِ ؟»

فَقالَتِ الْعَنْكَبَةُ : «إِنَّنا نَكْثُرُ فِي تِلْكَ الْأَماكِنِ ، لِأَنَّ هٰذِهِ الْحَشَراتِ الضَّارَّةَ تَكْثُرُ فِيها ، وَهِيَ مَصْدَرُ غِذائِنا الَّذِي نَقْتاتُ بِهِ.»

فَقالَ «رَشادٌ» : «إِنَّكِ ضَعِيفَةٌ ، لاقُوَّةَ لَكِ ، وَما أَرَى خُيُوطَكِ إِلَّا واهِيَةً . فَكَيْفَ تَزْعُمِينَ أَنَّكِ قادِرَةٌ عَلَى اقْتِناصِ الْحَشَراتِ فِيها ؟»

فَقالَتِ الْعَنْكَبَةُ : «إِنَّنِي - عَلَى ضَعْفِي - بارِعَةُ الْحِيلَةِ ، وَقَدْ وَهَبَنِيَ اللهُ صَبْرًا وَجَلَدًا نادِرَيْنِ . وَقَلَّما تَنْجُو فَرِيسَةٌ مِنْ بَيْنِ مِخْلَبَيَّ . وَإِنِّي لَأَسْتَدْرِجُها ، حَتَّى تَقَعَ فِي حِبالَتِي ؛ فَأَنْفُثَ فِيها مِنْ مِخْلَبَيَّ السَّمَّ ؛ حَتَّى يَنْهَكَ قُواها ، وَلا تَجِدَ سَبِيلًا إِلَى النَّجاةِ ، وَيَكُونَ نَصِيبَها الْهَلاكُ ؛ مَهْما بَذَلَتْ مِنْ جُهْدٍ وَمُقاوَمَةٍ . وَإِنِّي لَأَثِبُ عَلَى الذُّبابَةِ فَلا أَكادُ أُخْطِئُها . أَمَّا خُيُوطِي هٰذِهِ ، فَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ - مُنْذُ أَقْدَمِ الْعُصُورِ - كَيْفَ يَنْسُجُونَ شِباكَهُمْ وَثِيابَهُمْ عَلَى مِنْوالِها . وَقَدْ حاوَلُوا - مُنْذُ الْقَرْنِ الْماضِي - أَنْ يَنْسُجُوا مِنْ خُيُوطِي ثِيابَهُمْ ، فَلَمْ

يُوَفَّقُوا إِلَى ذٰلِكَ . وَلٰكِنَّ شَغَفَهُمْ بِدِقَّةِ هٰذا النَّسْجِ وَإِحْكامِهِ ، قَدْ حَفَزَهُمْ إِلَى تَذْلِيلِ العَقَباتِ فِي سَبِيلِ هٰذِهِ الغايَةِ . وَما زالوا يُعْمِلُونَ الحِيلَةَ ، حَتَّى وُفِّقَ الصِّينِيُّونَ — مُنْذُ عَهْدٍ قَرِيبٍ — إِلَى أَخْذِ قِطَعٍ مِنْ نَسِيجِ العَناكِبِ ، وَأَرسَلُوها إِلَى « أَوْرُبَّةَ »

لِتُخْلَطَ بِالحَرِيرِ ، فَتَزِيدَ النَّسْجَ رَوْعَةً وجَمالًا . وَقَدْ لَقُوا فِي ذٰلِكَ مِنْ أَلْوانِ العَناءِ ما لا يُوصَفُ . »

٩ ـ فَخْرُ العَناكِبِ

وَامْتَلأَتِ العَنْكَبَةُ زَهْوًا وَخُيَلاءَ ، بِما خَصَّها اللهُ بِهِ مِنْ مَزايا نادِرَةٍ ، فانطَلَقَتْ تُغَنِّى نَشِيدَ العَناكِبِ ، فِى صَوْتٍ واضِحِ النَّبراتِ :

«نَحنُ ٱلْعَناكِبَ ،أَبناءَ الرُّتَيلاءِ نَبنِى ٱلْبُيُوتَ عَلَى الْأَشْجارِ وَٱلْماءِ
وَفَوْقَ مُرتَفِعٍ ، أَوفَوقَ مُنْخَفِضٍ وَفِى ٱلْبَساتِينِ ، أَوفِى عُرضِ بَطْحاءِ
وَتَحتَ أَقْبِيَةٍ ، أَو فَوقَ رابِيَةٍ ، وَفِى شَفا حُفْرَةٍ ، أَو فَوقَ عَلْياءِ
وَفِى المَنازِلِ : كَم نَبنِى مَساكِنَنا تَحتَ ٱلسُّقُوفِ ، وَفِى أَرْكانِ أَفْناءِ
وَرُبَّما نَحْفِرُ الْأَجْحارَ نَسْكُنُها وَقَدْ نَعِمْنا بِها ، فِى جَوْفِ ظَلْماءِ
وَقَدْ جَعَلْنا لَها باباً يُؤَمِّنُنا ـ إِذا أَقَمْنَا بِها ـ مِنْ شَرِّ أَعْداءِ
نَظَلُّ فِيها ـ نَهارًا ـ وادِعِينَ ، فَإِنْ جَنَّ الظَّلامُ ، دَرَجْنا بَيْنَ أَحْياءِ
نَسْعى إِلَى القُوتِ مَهْما عَزَّ مَطْلَبُهُ فِى كُلِّ دانٍ ـ مِنَ الأَقْطارِ ـ أَوْ نائِى

* * *

وَكَمْ نُهَيِّرُ نَسَجْنَا فَوْقَ صَفْحَتِهِ ... بَيْتاً يُحَيِّرُ أَلْبَابَ الْأَلِبَّاءِ
بَيْتاً - عَلَى جَنَبَاتِ الْماءِ - نَرْفَعُهُ ... مِنَ الْخُيُوطِ ، فَيَبْدُو بَهْجَةَ الرَّائِي
يَا حُسْنَ هَنْدَسَةٍ مِنْ نَاسِجٍ صَنَعَهُ ... يَسْمُو عَلَى كُلِّ نَسَّاجٍ ، وَوَشَّاءِ!

* * *

وَكَمْ أَسَرْنَا بَعُوضاً - فِي حِبالَتِنا - ... وَكَمْ قَنَصْنا ذُباباً ، بَعْدَ إِغْراءِ
تَهْوِي الْفَرائِسُ أَسْرَى - فِي حَبائِلِنا ... مِنْ كُلِّ بَلْهاءَ ، تَمْشِي خَبْطَ عَشْواءِ
فَنَنْفُثُ السَّمَّ فِيها ، مِنْ مَخالِبِنا ... فَلا تُرَى - بَعْدَ حِينٍ - غَيْرَ أَشْلاءِ!

* * *

وَهَلْ نَسَجْتُمْ شِباكَ الصَّيْدِ مِنْ قِدَمٍ
إِلَّا مُحاكِينَ مِنْوالَ الرُّتَيْلاءِ ؟! »

١٠ - بَيْنَ « صَفاءٍ » و « أُمِّ قَشْعَمٍ »

وَقَدْ أُعْجِبَ الْإِخْوَةُ الْأَشِقَّاءُ الثَّلاثَةُ بِهٰذا النَّشِيدِ الرَّائِعِ ، وَشَكَرُوا لِلْعَنْكَبَةِ هٰذِهِ الْفُرْصَةَ السَّعِيدَةَ ، وَتِلْكَ الْفَوائِدَ الطَّرِيفَةَ الَّتِي هَيَّأَتْها لَهُمْ .

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

وَهَمُّوا بِالانْصِرافِ ، ولٰكِنَّ « صَفاءً » قال لَها ، وَهُوَ يُوَدِّعُها : « لَقَدْ حَدَّثْتِنِي أَنَّ لَكِ إِخْوَةً مِنَ الْعَناكِبِ ، فَأَيْنَ هُمْ ؟ »

فَقالَتِ الْعَنْكَبَةُ : « إِنَّ الْعَناكِبَ لا تَكادُ تَكْبَرُ ، حَتَّى تَفْتَرِقَ ، ثُمَّ لا يُمَيِّزُ أَحَدٌ مِنَ الْأَشِقَّاءِ أَخاهُ ، إِذا رَآهُ . وإِنَّ أُمَّ الْعَناكِبِ – إِذا ٱرْتَحَلَتْ مِنْ بَيْتِها – وَضَعَتْ بَيْضَها فِى كِيسٍ تَنْسُجُهُ مِنْ خُيُوطِها ، ثُمَّ تَحمِلُهُ – فِى حَذَرٍ وعِنايَةٍ نادِرَيْنِ – وَتُدافِعُ عَنْهُ دِفاعَ الْمُسْتَمِيتِ . فَإِذا فُقِسَ الْبَيْضُ ، حَمَلَتْ صِغارَها عَلَى ظَهْرِها ، حَتَّى إِذا كَبِرُوا تَرَكَتْهُم ! فَإِذا رَأَتْ واحِدًا مِنْهُمْ – بَعْدَ ذٰلِكَ – لَمْ تَعُدْ تَمِيزُهُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلا تَتَرَدَّدُ فِى افْتِراسِهِ ، إِذا لَقِيَتْهُ فِى الطَّرِيقِ لِتَتَغذَّى بِهِ !

وَلَوْلا ذٰلِكَ لَزادَ عدَدُنا زِيادَةً عَظِيمَةً ! »

فَقالَ لَها « صَفاءٌ » ، وَقَدِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ مِمَّا سَمِعَ :

« قَدْ تَأْكُلُ الْعَنْكَبَةُ . الْجُنْدَبا ... وَتُهلِكُ الزُّنْبــارَ وَالْعَقْرَبا
وَكَمْ بَعُوضٍ – فِى حِبالاتِها – ... راحَ أَسِيرًا ، يَبْتَغِى مَهْرَبا
فَخَدَّرَتْ – بِالسَّمِّ – أَعْصابَهُ ، ... وَأَنْشَبَتْ – فِى جِسْمِهِ – الْمِخْلَبا

وَقَدْ يَصِيدُ الضِّفدِعُ الْعَنْكَبا ، كَما تَصِيدُ الْبُومَةُ الْأَرْنَبا
وَتَأْكُلُ الْقِطَّةُ فَأْرًا ، وَلا تُبْقِي عَلَى فرْخٍ صَغِيرٍ حَبا
وَقَدْ أَلِفْنا كُلَّ هٰذا ، فَلَمْ نَدْهَشْ لَهُ ، مَهْما بَدا مُغْرِبا
لٰكِنَّ ما حَيَّرَ أَلْبابَنا ، أَنْ تَأْكُلَ الْعَنْكَبَةُ الْعَنْكَبا ».

فَأَجابَتْهُ « أُمُّ قَشْعَمٍ » :

« إِنْ تَأْكُلِ الْعَنْكَبَةُ الْعَنْكَبا أَوْ تَأْكُلِ الْأُمُّ ابْنَها الْأَنْجَبا
أَوْ تَأْكُلِ الآباءُ أَبْناءَها أَوْ تَأْكُلِ الْأُخْتُ أَخاً أَوْ أَبا
أَوْ تَأْكُلِ الزَّوْجاتُ أَزْواجَها ، فَلَيْسَ هٰذا حادِثاً مُغْرِبا
أَما تَرَى الْأَسْماكَ قَدْ شابَهَتْ ـ فِي قَتْلِ ماتُنْجِبُهُ ـ الْعَنْكَبا ؟
تَلْتَهِمُ الْكُبْرَى صَغِيراتِها ، وَيَأْكُلُ الْحُوتُ ابْنَهُ الْأَقْرَبا !
وَأَنْتُمُ النَّاسَ ـ عَلَى رُشْدِكُمْ ـ صِرْتُمْ لِأَمْثالِ الْأَذَى مَضْرِبا
لَمْ تَرْحَمُوا طَيْرًا ـ عَلَى غُصْنِهِ ـ رَتَّلَ لَحْناً شائقاً مُعْجِبا
وَلَمْ تُغِيثُوا بائِساً مُعْدِماً وَلَمْ تُقِيلُوا عاثِرًا مُذْنِبا
وَكَمْ أَكَلْتُمْ لَحْمَ إِخْوانِكُم مَيْتاً ، ولمْ تَرْعَوْهُمُ غُيَّبا
فَلا تَعِيبُونا ـ بِأَدْوائِكُمْ ـ فَقَدْ غَدا مَنْ عابَنا : أَعْيَبا ! »

١١ – شَناعَةُ الْغِيبَةِ

. فَصاحَتْ « سُعادُ » ، مَدْهُوشَةً : « لَسْتُ أَفهمُ ماذا تَعْنِينَ – يا « أُمَّ قَشْعَمٍ » – بِقَوْلِكِ : « إِنَّ النَّاسَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ إِخْوانِهِمْ مَيْتاً » !

فإِنَّنِى لَمْ أَرَ ، وَلَمْ أَسْمَعْ ، فى حَياتى كُلِّها ، أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ قَدْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ ، أَوْ صاحِبِهِ ، قَطُّ ! »

فَضَحِكَ « صَفاءٌ » مِنْ سَذاجَةِ أُخْتِهِ « سُعادَ » ، وَقالَ لَها : « إِنَّ « أُمَّ قَشْعَمٍ » لا تَعْنِى أَنَّ النَّاسَ يَأْكُلُون لَحْمَ إِخوانِهِمْ حَقًّا ؛ ولٰكِنَّها تَعْنِى أَنَّهُمْ يَغْتابُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَمَنِ اغْتابَ صاحِبَهُ ، فَكَأَنَّهُ قَدْ أَكَلَ لَحْمَهُ مَيْتاً . »

فقالَتْ « سُعادُ » : « آهِ ! لَقَدْ فَهِمْتُ ما تَعْنِيهِ « أُمُّ قَشْعَمٍ » الآنَ . وَلَعَلَّها تُشيرُ إِلَى الآيةِ الْكَرِيمَةِ : وَلايَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ؟ فَكَرِهْتُمُوهُ . »

فَقالَ « صَفاءٌ » : « صَدَقْتِ ، يا « سُعادُ » . فَإِنَّ « أُمَّ قَشْعَم » لَمْ تَعْنِ إِلَّا ما فَهِمْتِهِ تَماماً . وَلَوْ أَمْعَنْتِ الْفِكْرَ – يا أُخْتِى –

لَرَأَيْتِ أَنَّ مَنْ يَغْتابُ صاحِبَهُ ، يُخَيَّلُ إِلَى مَنْ يَراهُ أَنَّهُ يَنْهَشُ لَحْمَهُ ، وَلَيْسَ أَصْدَقَ مِنْ هٰذا التَّمْثِيلِ ،وَلا أَدَقَّ مِنْ هٰذا التَّشْبِيهِ ! »

١٢ ــ وَداعُ « أُمِّ قَشْعَمٍ »

فَقالَ « رَشاد » : « لَقَدْ تَأَخَّرْنا عَنْ مَوعِدِ الْعَوْدَةِ إِلَى دارِنا .وَإِنِّي لأَخْشَى أَن يَقْلَقَ أَبَوانا عَلَيْنا وَيَنْزَعِجا ، إِذا لم نَعُدْ إِلَيْهِما تَوًّا . »

فَقالَتْ « سُعادُ » : « صَدَقْتَ يا أَخِي ، فَقَدْ شَغَلَنا حِوارُ « أُمِّ قَشْعَمٍ » الْمُمْتِعُ عَنِ الرُّجُوعِ إِلَى الْبَيْتِ . »

فَاسْتَأْذَنَ « صَفاءٌ » صاحِبَتَه الْعَنْكَبَةَ فِى الذَّهابِ ، وَوَعَدَها بِالعَوْدَةِ إِلَيْها ــ بَيْنَ حِين وَآخَرَ ــ لِلاِسْتِزادَةِ مِنْ حَدِيثِها الشَّهِيِّ فَوَدَّعَتْهُ ، شاكِرَةً لَهُ حُسْنَ تَلَطُّفِهِ ، وَمَوْفُورَ أَدَبِهِ .

فَأَنْشَدَها « صَفاءٌ » الأَبْياتَ التَّالِيَةَ :

« سَلِمتِ ، يا « أُمَّ قَشْعَمْ »   فَإِنَّ قُرْبَكِ مَغْنَم
أَمْتَعْتِنا بِحَدِيثٍ ،   مِنَ الطَّرائِفِ مُلْهَمْ
وَأَنْتِ خَيْرُ سَمِيرٍ ،   وَمُؤْنِسٍ ومُكَلِّمْ
وَأَنْتِ خَيْرُ حَكِيمٍ ،   وَأَنْتِ خَيْرُ مُعَلِّمْ
وَلَسْتُ أَنْساكِ يَوْماً   ماعِشْتُ ، يا أُمَّ قَشْعَمْ . »

١٣ - بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ

وَلَمَّا عادَ الْأَشِقَّاءُ الثَّلاثَةُ ، وَجَدُوا أَبَوَيْهِمْ يَنْتَظِرانِهِمْ بِفارِغِ الصَّبْرِ .

وَما كادَ أَبَواهُمْ يَسْأَلانِهِمْ عَنِ السَّبَبِ فِى تَأَخُّرِهِمْ عَنْ مَوْعِدِ الْحُضُورِ ، حَتَّى أَفْضَوْا إِلَيْهِما بِكُلِّ ما دارَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ «أُمِّ قَشْعَمٍ» مِنْ أَحادِيثَ طَرِيفَةٍ . فابْتَهَجَ «أَبُو صَفاءٍ» بِما سَمِعَ مِن بَنِيهِ ، وَأَمَرَ «صَفاءً» أَنْ يُحْضِرَ كِتاباً بِعَيْنِه ، فَوْقَ مَكْتَبِهِ . فَلَمَّا أَحْضَرَهُ «صَفاءُ» رَغِبَ إِلَيْهِ أَبُوهُ أَنْ يَنْظُرَ فِى الصَّفحَةِ الثَّالِثَةِ بَعْدَ المِائَةِ ، مِنَ الْجُزْءِ الثَّانِى ، مِنَ الْكِتابِ .

فَقالَتْ «سُعادُ» : «أَىُّ كِتابٍ هٰذا ، يا صَفاءُ ؟»

فَأَجابَها أَبُوها : «إِنَّهُ كِتابٌ نَفِيسٌ ، اسْمُهُ «دُرُوسُ التَّأَمُّلِ فِى مَشاهِدِ الطَّبِيعَةِ» ، وَأَنا أُوصِيكُمْ بِقِراءَتِهِ وَدَرْسِهِ .»

فانْطَلَقَ «صَفاءُ» يَقْرَأُ ذٰلِكَ الْفَصْلَ الرَّائِعَ - وعُنْوانُهُ : «بَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ» - بِصَوْتٍ واضِحٍ ، جَلِىِّ النَّبَراتِ :

«تَنْسُجُ الْعَنْكَبُوتُ - كَعَنْكَبُوتِ الْحَدِيقَةِ - بَيْتَها فِى ثَنايا

الأَحْجارِ ، وَبَيْنَ الأَوْراقِ وَالأَغْصانِ ، أَوْ فِى زَوايا الْجُدْرانِ الْقَدِيمَةِ أَوِ الْمَهْجُورَةِ ، أَوِ الأَماكِنِ الْقَذِرَةِ . وَهُوَ فِى الْحَقِيقَةِ أَجْمَلُ الأَنْسِجَةِ الَّتِى يَنْسُجُها حَيَوانٌ . وَتَبْتَدِئُ فِى عَمَلِ بَيْتِها بِمَدِّ الْخُيُوطِ الْقَوِيَّةِ الرَّئِيسَةِ الأَساسِيَّةِ ، أَوَّلًا . ثُمَّ تُتْبِعُها بِخُيُوطٍ شُعاعِيَّةٍ ، مِنْ نُقْطَةٍ إِلَى أُخْرَى ، خِلالَ الْمَسافاتِ الْمُتَّسِعَةِ ، بِحَيْثُ تَتَقابَلُ كُلُّها فِى الْمَرْكَزِ . ثُمَّ تَمُرُّ بِخَيْطٍ لَطِيفٍ ، مُبْتَدِئَةً مِنَ الْمَرْكَزِ ، مارَّةً بِتِلْكَ الْخُيُوطِ بِشَكْلٍ لَوْلَبِىٍّ . وَلا تَقْتَصِرُ عَلَى تَقاطُعِ الْخُيُوطِ الشُّعاعِيَّةِ مَعَ الْخَيْطِ اللَّوْلَبِىِّ ، بَلْ تَجْتَهِدُ فِى تَثْبِيتِها مَعاً ، بِنُقَطٍ صَمْغِيَّةٍ مِنَ السَّائِلِ الَّذِى تُفْرِزُهُ . وَبَعْدَ تَمامِ الْبَيْتِ تَقْطَعُ مَرْكَزَهُ ، وَتَرْبِطُهُ بِمِخْلَبِها ، بِخَيْطٍ طَوِيلٍ ، تَسْتَخْدِمُهُ كَأَسْلاكِ الْبَرْقِ . وَلَها مَهارَةٌ فائِقَةٌ فِى تَرْتِيبِ خُيُوطِها ، واسْتِخْدامِها فِى الْمَسافاتِ الْبَعِيدَةِ الْواسِعَةِ . فَإِنَّها تَغْزِلُ خَيْطًا طَوِيلًا وَتُدَلِّيهِ ، حَيْثُ تَحْمِلُهُ الرِّيحُ إِلَى الْغُصْنِ الآخَرِ ، أَوِ الْجِدارِ ، مَثَلًا ؛ فَيَعْلَقُ بِهِ .

وَتُتَمِّمُ بِناءَ بَيْتِها فِى نَحْوِ ساعَةٍ زَمَنِيَّةٍ ، ثُمَّ تَأْوِى إِلَيْهِ لِتَرْقُبَ عَنْ كَثَبٍ كُلَّ حَشَرَةٍ

تَطِنُّ بِالقُرْبِ مِنْهُ .

وَما أَسْرَعَ ما يُوجَدُ الاِضْطِرابُ وَالْهَيَجانُ فِى بَيْتِها .

وَإِذا بِالفَرِيسَةِ الْمُغَفَّلَةِ قَدْ وَقَعَتْ فِيهِ ، ثُمَّ هِىَ تُرِيدُ أَنْ تُحاوِلَ الْخَلاصَ مِنْهُ ، فَلا يُجْدِيها عَمَلُها !

وَالْعَنْكَبُوتُ سَرِيعَةٌ جِدًّا ، لِأَنَّها سُرْعانَ ما تَهجُمُ عَلَى الْفَرِيسَةِ ، وتَرْمِي بِنَفْسِها ، قابِضَةً عَلَيْهــا ، فَتُنْشِبُ مَخالِبَها الْقاسِيَةَ ، الَّتِي هِيَ مَحــاقِنُ سامَّةٌ ؛ ثُمَّ تَلُفُّهــا فِي خُيُوطٍ أُخْرَى ، وَتُوثِقُها وَثاقاً تامًّا ، فَتُصْبِــحُ مَشْدُودَةَ الْأَطْرافِ ، مُهَشَّمَةَ الْجِسْمِ ، مَعْضُوضَةً ، مَسْمُومَةً ، وَحِينَئِذٍ تَجُرُّها إِلَى عَرِينِها ،

عَلامَةً عَلَى انْتِصارِها ؛ فَإِمَّا أَنْ تَبْتَلِعَها مِنْ فَوْرِها ، وَإِما أَنْ تَتْرُكَها مُكَبَّلَةً فِي أَغْلالِها الْحَرِيرِيةِ ، ذُخْرًا لِمَأْدُبَةٍ أُخْرَى . »

١٤ ـ قِصَّةُ الْعَنْكَبِ الْحَزِينِ

وَلَمَّا انْتَهى «صَفاءُ» مِنْ قِراءَةِ هٰذا الْفَصْلِ الْمُمْتِعِ ، أُعْجِبَ أَخَواهُ بِدِقَّةِ ما يَحْوِيهِ مِنْ بَراعَةِ الْوَصْفِ ، وَحُسْنِ الْأَداءِ .

فَقالَ «أَبُو صَفاءٍ» :

«لَقَدْ ذَكَرْتُ قِصَّةً فُكاهِيَّةً ، قَرَأْتُها ـ مُنْذُ أَعْوامٍ ـ فِى كِتابٍ عِلْمِيٍّ ، جَلِيلِ الْقَدْرِ ، عُنْوانُهُ : «فُصُولٌ فِى التَّارِيخِ الطَّبِيعِيِّ» ، وَلَمْ أَنْسَ رَوْعَةَ هٰذِهِ الْقِصَّةِ إِلى الْيَوْمِ . وَلَعَلِّى قَدْ أَحْضَرْتُ مَعِى هٰذا السِّفْرَ النَّفِيسَ ـ فِى جُمْلَةِ ما أَحْضَرْتُهُ مِنَ الْكُتُبِ قُبَيْلَ سَفَرِى ـ فَما أَحْسَبُنِى نَسِيتُهُ . »

ثُمَّ أَسْرَعَ «أَبُو صَفاءٍ» إِلَى مَكْتَبَتِهِ الْحافِلَةِ ، وَأَلْقَى عَلَيْها نَظْرَةً واحِدَةً : فَرَأَى الْكِتابَ فِى مَكانِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ . وَما إِنْ أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ الْكُتُبِ ، حَتَّى أَبْصَرَ وَرَقَةً بَيْضاءَ فِى ثَنايا صَحائِفِهِ ؛ وَكانَ قَدْ وَضَعَها أَمامَ الصَّفْحَةِ الْأُولَى بَعْدَ السِّتِّينَ وَالْمِائَتَيْنِ ، لِتُذَكِّرَهُ بِمَوْضِعِ الْقِصَّةِ الْمُعْجِبَةِ : «قِصَّةِ الْعُكَّاشِ» ـ ذٰلِكَ الْعَنْكَبِ الْحَزِينِ ـ مِنَ الْكِتابِ .

فَالْتَفَتَ «أَبُو صَفاءٍ» إِلَى بَنِيهِ قائِلًا :

« لَقَدْ قَرَأْتُ قِصَّةَ « أَبِى خَيْثَمَةَ » أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً ، فَلَمْ تَبْلَ جِدَّتُها ، وَلَمْ تَخْلُقْ بَهْجَتُها وَسِحْرُها وَأَنا أُوصِيكُمْ - أَيُّها النُّجَباءُ - أَنْ تُنْعِمُوا النَّظَرَ فِى دَقائِقِها ، بَعْدَ أَنْ يَتْلُوَها عَلَيْنا صَفاءُ . »

فَأَخَذَ « صَفاءُ » الكِتابَ - بِيَمِينِهِ - وَقَرَأَ عَلَى إِخْوَتِهِ مايَأْتِى:

١٥ - حَقِيقَةٌ فِى فُكاهَةٍ

« دَخَلْتُ غابَةً باسِقَةَ الأَشْجارِ ، يَجرِى فِيها نَهرٌ مُتَعَرِّجٌ . فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَيْهِ ، شاهَدْتُ عَلَى إِحْدَى ضِفَّتَيْهِ عَنْكَباً ، أَسْمَرَ اللَّوْنِ ، جالِساً عَلَى حَجَرٍ ، يُنَظِّفُ وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ ، كَما يَفْعَلُ الذُّبابُ . وَهُوَ نَحِيفٌ ، خائِرُ القُوَى . فَرَأَيْتُ أَنَّ أَفْضَلَ ما أَفْتَتِحُ بِهِ الْحَدِيثَ مَعَهُ ، السُّؤالُ عَنْ صِحَّتِهِ . فَقُلْتُ لَهُ : « أَراكَ مُنْحَرِفَ الْمِزاجِ ، فَما يُؤْلِمُكَ ؟ »

فَقالَ : « إِنِّى مَرِيضٌ ، وَخائِفٌ ، وَقَلِقٌ . »

فَقُلْتُ : « ما الْخَبَرُ ؟ وَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِى قَطُّ. أَنَّ عَنْكَباً مِثْلَكَ يَمْرَضُ وَيَخافُ ، وَقَدْ خُصِصْتَ بِقُوَّةٍ لَمْ يُخَصَّ بِها سِواكَ ! »

فَقالَ الْعَنْكَبُ : «وَهٰذِهِ إِحْدَى الْبَلِيَّتَيْنِ . فإِنَّ النَّاسَ يَظُنُّونَ الظُّنُونَ ، وَيَسْتَنْتِجُونَ النَّتائِجَ ، مِنْ مُقَدِّماتٍ فاسِدَةٍ لا تُنْتِجُ شَيْئاً . وَلِذٰلِكَ فَإِنِّى أَظُنُّ أَنَّ قِصَّتِى تَفْتَحُ عَيْنَيْكَ ، فَتَرَى الْأُمُورَ عَلَى حَقِيقَتِها . أَتَعْلَمُ أَنَّنا — مَعْشَرَ الْعَناكِبِ — مِنْ أَكْثَرِ الْمخْلُوقاتِ اجْتِهادًا ، وَأَوْسَعِهِمْ حِيلَةً ؟ فَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ طارَ فِى الْهَواءِ بِغَيْرِ جَناحٍ . نَعَمْ ! إِنَّ الْخَفافِيشَ تَطِيرُ ، وَلا جَناحَ لَها . وَلٰكِنَّ بَيْنَ قوائِمِها وَظَهْرِها أَغْشِيَةً . وَمَعَ حِرْمانِنا تِلْكَ الْأَغْشِيَةَ ، تَمَكَّنَّا مِنْ رُكُوبِ الْهَواءِ ، وَلَمْ يُشارِكْنا فِى ذٰلِكَ إِلَّا الْإِنْسانُ . لٰكِنَّا سَبَقْناهُ بِقُرُونٍ كَثِيرَةٍ . قُلْ لِى: مَتَى اسْتَطاعَ قَوْمُكَ الطَّيَرانَ؟ »

فَقُلْتُ : « فِى الْعامِ السَّابعِ بَعْدَ التِّسْعِمائَةِ والْأَلْفِ . »

فَقالَ : « هٰكَذا ظَنَنْتُ . أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ رَكِبْنا الْهَواءَ ، قَبْلَ عَصْرِ الْعُمْرانِ ! وَإِلَيْكَ شَرْحَ قِصَّتِى :

حَدَثَ — مُنْذُ سَنَتَيْنِ — أَنَّ أُمى كانَتْ جالِسَةً فِى عُقْرِ بَيْتِها ، فَأَتاها الطَّلْقُ ، وَجَعَلَتْ تَبِيضُ بَيْضَها ، واحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى ، وَظَلَّتْ تَبِيض إِلَى أَنْ بَلَغَ عَدَدُ ما باضَتْهُ — فِى ذٰلِكَ الْيَوْمِ —

ثَلَثمِائَةِ بَيْضَة . وَخافَتْ أَنْ تَتَفَرَّقَ الْبُيُوضُ ، فَلا يَعُودَ لَها سَبِيلٌ إِلَيْها . فَجَعَلَتْ تَغْزِلُ الْخُيُوطَ مِنْ مَغازِلِها : وَهِيَ سِتُّ أَنابِيبَ فِي ذَنَبِها ، تُفْرِزُ الْخُيُوطَ الْحَرِيرِيَّةَ الدَّقِيقَةَ ، الَّتِي تُسَمُّونَها : نَسِيجَ الْعَنْكَبُوتِ ، وَتَضْرِبُونَ بِها الْمَثَلَ فِي الوَهَنِ لِدِقَّتِها . وَهِيَ - لَوْ جُمِعَ بَعْضُها إِلَى بَعْضٍ - لَصارَتْ أَمْتَنَ مِنْ أَسْلاكِ الْحَدِيدِ! فَأَفْرَزَتْ كَثِيرًا مِنْ هٰذِهِ الْخُيُوطِ ، وَلَفَّتْ بَيْضَها بِها ، وكَرَّرتْ لَفَّهُ ، حَتَّى صارَتِ الْبُيُوضُ كُلُّها كُرَةً كَبِيرَةً تُحِيطُ بِها خُيُوطٌ صُفْرٌ ، كَالزَّغَبِ الْواهِي ، أَوْ كَرِيشِ النَّعامِ . وَلَمَّا تَمَّ لَها ذٰلِكَ ، حَمَلَتْ هٰذِهِ الْكُرَةَ بَيْنَ فَكَّيْها ، وَخَرَجتْ مِنْ بَيْتِها قاصِدَةً أَنْ تَصْعَدَ بِها إِلَى مَكانٍ عالٍ ، لا يَصِلُ إِلَيْهِ ماءُ النَّهْرِ إِذا فاضَ فِي الشِّتاءِ . وَبَعْدَ تَعَبٍ كَبِيرٍ ، وَجَهْدٍ عَنِيفٍ ، وَصَلَتْ إِلَى الْمَكانِ الْعالِي ، وَوَضَعَتْ بُيُوضَها فِي ثَقْبٍ غائِرٍ بَيْنَ الصُّخُورِ ، ثُمَّ عادَتْ إِلَى بَيْتِها عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ .

وَلَوْ رَآنا - أَنا وَأَخَواتِي - أَحَدٌ فِي ذٰلِكَ الْيَوْمِ ، وَالْأَيَّامِ التَّالِيَةِ ، لَظَنَّنا بُزُورًا دَقِيقَةً ، اجْتَمَعَ عَلَيْها زَغَبُ الْحَرِيرِ .

وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ يَرْتَحْ بالُنا دَقِيقَةً مِنَ الْخَطَرِ . فَفِى ذاتِ يَوْمٍ زارَنا طائِرٌ : قَبِيحُ المَخْبَرِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَبِيحَ الْمَنْظَرِ ، مُبَرْقَشٌ بالزُّرْقَةِ وَالصُّفْرَةِ ، لِكَىْ يُخْفِىَ شَراسَةَ أَخْلاقِهِ . وَجَعَلَ يُفَتِّشُ بَيْنَ الشُّقُوقِ وَالنَّخارِيبِ ؛ وَيَسْتَخْرِجُ الدِّيدانَ والْحَشَراتِ مِنْها ، ويَأْكُلُها . وَلِحُسْنِ حَظِّنا ، كانَتْ أُمُّنا قَدْ أَخْفَتْنا فِى نُقْرَةٍ عَمِيقَةٍ ؛ فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْنا . وَمَرَّ بِنا فَصْلُ الشِّتاءِ وَنَحْنُ بَيْضٌ ؛ ثُمَّ خَرَجْنا مِنْ بُيُوضِنا ، فِى الرَّبِيعِ ، وَلَمْ نَخْرُجْ مِنْها دِيداناً ، بَلْ خَرَجْنا عَناكِبَ دَفْعَةً واحِدَةً . وَهٰذا أَمْرٌ يَسْتَرْعِى الِانْتِباهَ ؛ فَإِنَّ الْفَراشَ وَالنَّحْلَ ، وَالْخَنافِسَ ، تَخْرُجُ كُلُّها دِيداناً صَغِيرَةً ، ثُمَّ تَمُرُّ بِأَطْوارٍ مُخْتَلِفَةٍ ، حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ كَمالِ النُّمُوِّ . أَمَّا نَحْنُ فَمُمْتازُونَ عَلَيْها كُلِّها : لِأَنَّنا نَخْرُجُ مِنَ الْبَيْضِ عَناكِبَ كامِلَةً ، كَما يَخْرُجُ أَصْدِقاؤُنا الْجَنادِبُ. خَرَجْنا مِنْ بُيُوضِنا ؛ وَلٰكِنَّنا كُنَّا صِغارًا كَرُءُوسِ الدَّبابِيسِ . ولَمَّا خرجْنا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَرَى الْأَشْياءَ واضِحَةً : لِأَنَّنا كُنَّا مُحاطاتٍ بِأَغْشِيَةٍ دَقِيقَةٍ ، صِيانَةً لَنا كَما تُصانُ الَّلآلِئُ فِى أَصْدافِها !

وَلَقَدْ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ مَزَّقَ كِيسَهُ ، وَخَرَجَ مِنْهُ . فَلَمَّا انْجَلَتْ عَيْناىَ ، ذَهَلْتُ عَنْ نَفْسِى، بِما رَأَيْتُهُ حَوْلِى مِن اتِّساعِ الوادى الَّذِى وُجِدْتُ فِيهِ ... وَكَبِرَ كُلُّ ما حَوْلِى بالنِّسْبَةِ إِلَىَّ ؛ فَكُنْتُ أَرَى النَّبْتَةَ الصَّغِيرَةَ فَأَحْسَبُهاشَجَرَةً كَبِيرَةً. لٰكِنَّنِى سُرْعانَ ماشُغِلتُ عَنْ ذٰلِكَ ، بِما رَأَيْتُهُ حَوْلِى مِنْ كَثْرَةِ أَخَواتِى اللَّواتِى خَرَجْنَ مِنْ بُيُوضِهِنَّ مِثْلِى . وَبَيْنا أَنا أَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ سَمِعْتُ صَوْتاً يُخاطِبُنا ، بِلَهْجَةِ الآمِرِ النَّاهِى . فالتَفَتُّ ، وَإِذا المُتَكَلِّمُ :عَنْكَبَةٌ كبيرَةٌ ، جالِسَةٌ فِى بابِ بَيْتِها ، وَهِىَ أَمامَنا فَأَصْغَيْنا إِلَيها ؛ فَقَصَّتْ عَلَينا خَبَرَ ما أَصابَها مِنَ الْعَناءِ بِسَبَبِنا . أَمَّا أَنا فَلَم يُذْهِلْنِى خَبَرُها ، قَدرَ ما أَذْهَلَنى شَىءٌ رأيتُهُ تَحْتَها ، كَأَنَّهُ عَنْكَبٌ مَيِّتٌ .

فَلَمَّا أَتَمَّتْ حَدِيثَها ، قُلْتُ لَها :

« ما هٰذا الَّذِى أَراهُ تَحْتَ أَقْدامِكِ ، يا أُمَّاهُ ؟ »

فَقالَتْ : « هٰذا أَبُوكَ ، يا وَلَدِى ! »

فَقُلْتُ : « إِنَّنِى أَراهُ مَيِّتاً ، لا حَراكَ بِهِ ! »

فَتَبَسَّمَتْ ، وَقالَتْ : « نَعَمْ ، هُوَ مَيِّتٌ . فَقَدِ انْقَضَتْ أَيَّامُ

السُّرُورِ ، وَلَمْ يَعُدْ لى بِهِ أَرَبٌ ؛ فَقَتَلْتُهُ ، وَمَصَصْتُ دَمَه وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا جِلْدُهُ ، وَسَأَجْعَلُهُ فِراشاً لى ، وَهُوَ فِراشٌ وَثِيرٌ فِى لَيْلَةٍ نَدِيَةٍ مِثْلِ هٰذِهِ ! »

فَقُلْتُ لَها : « هَلْ أَتَزَوَّجُ مَتَى كَبِرْتُ ، وآكُلُ زَوْجِى ؟ »

فقالَتْ : « لا . لِأَنَّكَ أَنْتَ ذَكَرٌ ، يا وَلَدِى

وستأْكُلُكَ زَوْجَتُكَ ، كَما أَكَلْتُ أَنا أَباكَ

وَلا تَدْنُ مِنِّى الْآنَ ؛ لِأَنِّى أَحْياناً آكُلُ أَوْلادى أَيْضاً . »

* * *

هٰذا أَوَّلُ نَبإٍ سَمِعْتُهُ فِى حَياتى ، فَما أَتْعَسَ هٰذِهِ الْحَياةَ ! هَلْ تَتَصَوَّرُ حياةً أَتْعَسَ مِنْها ؟ »

فقلتُ لهُ ، بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ أَنَّهُ عَنْكَبٌ لا عَنْكَبَةٌ :

« الْآنَ عَرَفْتُ : لماذا أَنْتَ خائِفٌ ، كاسِفُ الْبالِ ! »

فَقالَ : « أَلا تُرِيدُ أَنْ تَسْمَعَ تَتِمَّةَ قِصَّتِى ؟ »

فَقُلْتُ : « بَلَى : هاتِ ما عِنْدَكَ . »

فَقالَ : « حِينَما أَنْبَأَتْنا أُمى أَنَّها تَأْكُلُ أَوْلادَها ، أَطْلَقْتُ

أَرْجُلِي لِلرِّيحِ ، وَهَرَبْتُ مِنْ وَجْهِها نازِلًا نَحْوَ النَّهْرِ ، حَتَّى وَصَلْتُ إلى مائِهِ ، فوجدْتُ أَنَّنى أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْشِيَ عَلَى الْماءِ ، كَما أَمْشِي عَلَى الْيابِسَةِ ، فَسُرِرْتُ بِذٰلِكَ جِدًّا . »

فقُلْتُ له : « هٰذا أَمْرٌ لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُه . »

فَقالَ : « إِنَّكَ لا تَعْلَمُ مِقْدارَ ما نَسْتَطِيعُهُ ، إذا اضْطُرِرْنا إِلَيْهِ . نَعَمْ ، لَيْسَ كُلُّ الْعَناكِبِ يَسْتطِيعُ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّ بعْضَها يَسْتَطِيعُهُ ، وَأَنا مِنْهُم . ومِنْ أَنْسِبائِنا نَوْعٌ يَغُوصُ فى الْماءِ ، وَيَسْكُنُ فى فُقَّاعَةٍ منَ الْهَواءِ ؛ وَنَوعٌ يَثِبُ عَلَى الْأَرْضِ ، مِثْلَ الْقنْغَرِ . ولا غَرابَةَ فى مَشْيِنا عَلَى الْماءِ ، فَإِنَّ بَيْنَنا وَبَيْنَ السَّرَاطينِ نَسَباً ، وَإِنْ كانَ بَعِيدًا . »

فَقُلْتُ لَهُ : « أَصَبْتَ ، فَإِنَّكَ تُشْبِهُ السَّرَطانَ فى شَكلِكَ . »

فَقالَ : « نَعَمْ . ولٰكِنَّ السَّرَطانَ لا يَكْتَفِى بِثَمانِى أَرْجلٍ مثلَنا ، بَلْ لَهُ عَشْرُ أَرْجلٍ . ولماذا تَقْطَعُ عَلَيَّ الْحَديثَ ؟ دَعْنِى أُتَمِّمْ قِصَّتِي : لَمَّا رَأَيْتُ أَنَّنى أَمْشِى عَلَى وَجْهِ الْماءِ بادَرْتُ إِلَى أَقْرَبِ قَصبَةٍ ، وَأَخَذْتُ أَنْسُجُ بَيْتاً لِنفْسِى ، لِكَىْ أَجْعَلَهُ مِصْيَدَةً

لِلذُّبابِ . وَقَبْلَ أَنْ أُتِمَّهُ ، مَشَيْتُ عَلَى قَصَبَةٍ ، فَوَجَدْتُ عَلَيْها حَشَرَاتٍ صَغِيرَةً ، خُضْرًا ، خالِيَةً مِنَ الْأَجْنِحَةِ ، فَقَبَضْتُ عَلَى واحِدَةٍ مِنْها ، وَالْتَهَمْتُها ، فاسْتَطْعَمْتُها . فَجَعَلْتُ أَلْتَهِمُ الْواحِدَةَ بَعْدَ الْأُخْرَى ، حَتَّى انْتَفَخَتْ بَطْنِي ، وَشَعَرْتُ كَأَنَّهُ كادَ يَنْشَقُّ . »

فَقُلْتُ لَهُ : «كَيْفَ كُنْتَ تَلْتَهِمُها ؟ أَكُنْتَ تَبْلَعُها بَلْعاً ؟ »

فَقالَ : «كَلَّا ! بَلْ كُنْتُ أَشُقُّ ظَهْرَها مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْها ، وَأَمْتَصُّ دَمَها ، فَلا أُبْقِي فِي جِسْمِها شَيْئًا غَيْرَ جِلْدِها . وَلَمَّا شَبِعْتُ ، عُدْتُ إِلَى بِناءِ بَيْتِي ، فَأَتْمَمْتُهُ . وَجَلَسْتُ أَتَرَقَّبُ وُقُوعَ الذُّبابِ ، فَوَقَعَ فِيهِ ذُبابٌ كَثِيرٌ . فَأَكَلْتُ وَسَمِنْتُ جِدًّا ، حَتَّى كُنْتُ أُضْطَرُّ إِلَى أَنْ أَخْلَعَ جِلْدِي مِرارًا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسَعُنِي . وَكَثِيرًا ما كانَتْ تَنْقَطِعُ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ مِنِّي ، وَقْتَ خَلْعِهِ . »

فَقُلْتُ : «كَيْفَ ذلِكَ ؟ أَوَلَمْ يَكُنْ قَطْعُها مُؤْلِماً ؟ »

فَقالَ : «بَلَى ، كُنْتُ أَتَأَلَّمُ قَلِيلًا ؛ لِأَنَّنا ـ نَحْنُ الْعَناكِبَ ـ لا نَتَأَلَّمُ مِثْلَكُمْ ، وَلا مِثْلَ الدِّيدانِ ؛ فَإِذا انْقَطَعَتْ رِجْلٌ مِنْ أَرْجُلِنا ، نَبَتَتْ لَنا رِجْلٌ أُخْرَى بَدَلًا مِنْها . . وَقَدْ قُطِعَتِ اثْنَتانِ

مِنْ أَرْجُلِي ، فَنَبَتَ لِي غَيْرُهُما . وَلا داعِيَ لِلْإِطالَةِ فِي تارِيخِ حَياتِي عِنْدَ ذٰلِكَ النَّهْرِ ؛ فَأَدَعُهُ ، وَأَقُصُّ عَلَيْكَ قِصَّةً غَيَّرَتْ مَجْرَى أُمُورِي :

كُنْتُ - ذاتَ يَوْمٍ - جالِساً فِي بَيْتِي ، أَتَرَدَّدُ عَلَى بابِهِ ، داخِلاً خارِجاً ، لَعَلِّي أَلْقَى إِلَى ذُبابَةً كَبِيرَةً كانَتْ واقِفَةً عَلَى قَصَبَةٍ أَمامِي . وَبَيْنا أَنَا أَنْظُرُ إِلَيْها ، وَأَتَأَمَّلُ جَناحَيْها : إِذا بِالْجَناحَيْنِ سَقَطا عَنْ بَدَنِها بَغْتَةً . وَإِذا بِتِلْكَ الذُّبابَةِ قَدْ صارَتْ - بَعْدَ وُقُوعِ جَناحَيْها - نَمْلَةً كَبِيرَةً ، كَأَقْبَحِ ما يَكُونُ النَّمْلُ . »

فَقُلْتُ له : « أَلا تَعْلَمُ أَنَّ مَلِكاتِ النَّمْلِ ، يَرْمِينَ أَجْنِحَتَهُنَّ بَعْدَ زَواجِهِنَّ ؟ »

فَقالَ : « كَلَّا ، لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ ذٰلِكَ . فَوَقَفْتُ مَدْهُوشاً . وَقَبْلَ أَنْ أُفِيقَ مِنْ دَهْشَتِي ، جَعَلَتِ النَّمْلَةُ تُناجِي نَفْسَها ، وَتَقُولُ : «هَلا ، هَلا . لَقَدْ كانَ الْواجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَعْرِفَ أَنَّ جَناحَيَّ يَسْقُطانِ الْيَوْمَ ، فَلا أَبْقَى هُنا فَوْقَ الْماءِ . وَلَوْلا هٰذا الْقَصَبُ الَّذِي يُوصِلُنِي إِلَى الْبَرِّ ، لَقُضِيَ عَلَيَّ . ماهٰذا الَّذِي أَمامِي ؟

هٰذا عَنْكَبٌ ، إِذَنْ آخُذَهُ إِلَى قَرْيَتِي وَآكُلَهُ عَلَى مَهَلٍ ! »

وَأَنْتَ تَعْلَمُ ما حاقَ بِي حِينَئِذٍ . فَرَمَيْتُ بِنَفْسِي مِنْ بَيْتِي إِلَى الْماءِ ، وَأَخَذْتُ أَسْبَحُ جُهْدِي ؛ وَلَمْ أَبْعُدْ إِلَّا خُطًى قَلِيلَةً ، حَتَّى رَأَيتُ حَرَكَةً عَنِيفَةً فِي الْماءِ ، فَالْتَفَتُّ ، وَإِذا بِخُنْفَسَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ خَنافِسِ الْماءِ ، وَقَدْ رَفَعَتْ زُبانَيَيْها ، وَجَدَّتْ فِي أَثَرِي سِباحَةً . وَنَظَرْتُ أَمامِي أُرِيدُ الْهَرَبَ ، وَإِذا بِي أَرَى دُودَةً كَبِيرَةً مِنَ الدُّودِ الَّذِي يَتَكَوَّنُ مِنْهُ زُنْبُورُ التِّنِّينِ ، وَعَيْناها كَمِصْباحَيْنِ مُتَّقِدَيْنِ ، سَدَّتْ فِي وَجْهِي مَسالِكَ الْماءِ والْيابِسَةِ . وَلَمْ يَبْقَ أَمامِي إِلَّا الْهَواءُ ، فَوَثَبْتُ إِلَى وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِ زَنْبَقِ الْماءِ . وَلَجَأْتُ إِلَى سَلِيقَةِ أَسْلافِي ، وَأَفْرَزْتُ مِنْ مَغازِلِي السِّتَّةِ ــ الَّتِي فِي ذَنَبِي ــ سِتَّةَ خُيُوطٍ حَرِيرِيَّةٍ دَقِيقَةٍ ، فَاتَّحَدَتْ مَعاً ، وَطارَتْ فِي الْهَواءِ : خَيْطاً واحِدًا ، بَرَّاقاً كَالْبِلَّوْرِ ؛ فَتَشَبَّثْتُ بِهِ ، وَطِرْتُ فِي مَجارِي الرِّياحِ الَّتِي كانَتْ تُمَدِّدُها حَرارَةُ الشَّمْسِ ، وَتُرسِلُ بِها صُعُدًا . ثُمَّ عَبَثَ بِيَ النَّسِيمُ ، فَحَمَلَنِي إِلَى حَرَجَةٍ (أَشْجارٍ مُجْتَمِعَةٍ) مِنَ الصَّنَوْبَرِ ، وَسارَ بِي فَوْقَها ،

وَفَوْقَ السُّهُولِ الْمُجاوِرَةِ لَها . وَقد رَأَيْتُ فِى طَرِيقِى كَثِيراتٍ مِنْ أَخَواتِى ، راكِباتٍ مَناطِيدَها ، وَهِىَ سائِراتٌ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّماءِ . وَلٰكِنِّى رَأَيْتُ طُيُورًا صَغِيرَةً مِنَ النَّوْعِ المَعْرُوفِ بِالخُطَّافِ ، تَنْقَضُّ عَلَيْها وَتَخْطَفُها . فَقُلْتُ : «وَيْلاهُ ! حَتَّى فِى الْهَواءِ لا نَسْلَمُ مِنَ الْأَعْداءِ ؟ وَمَنْ أَرادَ السَّلامَةَ لَمْ يَجِدْها ، وَلَوِ اتَّخَذَ لَهُ نَفَقًا فِى الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّماءِ . » فَأَطَلْتُ خَيْطِى ، وَجَعَلْتُ أَهْبِطُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا إِلَى أَنْ وَقَعْتُ عَلَى بَعْضِ الْهَشِيمِ . وَلَمْ أَكَدْ أَصِلُ إِلَيْهِ ، حَتَّى رَأَيْتُ زِنْبارًا – كالتِّنِّينِ – وَاقِفاً فِى انْتِظارِى . وَنَحْنُ الْعَناكِبَ لا نَخافُ مِنَ الزَّنابِيرِ ، إِذا كُنَّا فِى بُيُوتِنا ، بَلْ نَحْتالُ عَلَيْها ، وَنَنْسُجُ حَوْلَها خُيُوطَنا ، حَتَّى نَمْنَعَها مِنَ الْحَرَكَةِ . ثُمَّ نَمُصُّ دَمَها – وَهِىَ كَبِيرَةٌ ، كَثِيرَةُ الْغِذاءِ – فَنَقْتاتُ بِها أَيَّاماً . وَأَمَّا إِذا رَأَتْنا خارِجَ بُيُوتِنا فَإِنَّها تنتقِمُ مِنا . فَيَهْجُمُ الزِّنْبارُ عَلَى الْعَنْكَبَةِ ، وَيَقْبِض عَلَيها بِفَكَّيهِ ، وَيَحمِلُها إِلى بَيتِهِ وَيأْكُلُها دَفْعَةً واحِدَةً .

وَلَمْ تَخُنِّى الْحِيلَةُ ، فَقَطَعْتُ خَيْطِى ، وَٱرْتَمَيْتُ فِى الْهَشِيمِ

كَقِطْعَةٍ مِنَ الْحَجَرِ. فَوَصَلْتُ إِلَى أَسْفَلِهِ ، وَقَدْ شَلَّ الْخَوْفُ أَعْصابِي.

وَأَبْرَقَتِ السَّماءُ وَأَرْعَدَتْ - فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ - وَسَقَطَ بَرَدٌ كَثِيرٌ. وَقُمْتُ - فِي الصَّباحِ : وَإِذَا الرِّيحُ تَهُبُّ بارِدَةً ، وَالسَّماءُ مُغَطَّاةٌ بِالسُّحُبِ. فَصَغُرَتْ نَفْسِي فِي عَيْنَيَّ ، وَشَعَرْتُ بِوَحْدَةٍ وَوَحْشَةٍ. فَصَعِدْتُ إِلَى رَأْسِ الشَّجَرَةِ الَّتِي كُنْتُ فِيها ، وَأَفْرَزْتُ الْخُيُوطَ مِن مَغازِلِي ، وَصَعِدتُ بِها إِلَى الْجَوِّ ، فَساقَتْنِي الرِّياحُ ، وَرَمَتْنِي عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ ، فِي الْمَكانِ الَّذِي قَضَيْتُ فِيهِ زَهْرَةَ صِبايَ. وَاعْتَدَلَ الْهَواءُ - حِينَئِذٍ - وَكُنْتُ قَدْ بَلَغْتُ أَشُدِّي ، فَتاقَتْ نَفْسِي إِلَى زَوْجَةٍ تَكُونُ مَعِي.

وَقُلْتُ لِنَفْسِي : « مالَكِ وَلِلزَّوْجَةِ ؟ وَأَنْتِ تَعْلَمِين عاقِبَةَ أَمْرِكِ مَعَها ؟ »

فَقالَتْ لِي : « ما الْعَمَلُ ، والْمقْدُورُ قَهَّارٌ ؟ ! »

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ « الْعَنْكَبُ » ، قائلًا :

« وَقَضَينا شَهْرَ الْعَسَلِ .. وَالآنَ حُمَّ الْقَضاءُ ! »

وَكانَ يَقُولُ ذٰلِكَ وَهُوَ يَنْظُرُ - يَمْنَةً وَيَسْرَةً - كَالْمُسْتَجِيرِ الْخائِفِ مِنْ خَطَرٍ يُوشِكُ أَنْ يَدْهَمَهُ!

١٦ ــ مَصْرعُ الْعَنْكَبِ الْحَزِينِ

وَبَيْنا هُوَ كَذٰلِكَ ــ وَأَعْضاؤُهُ تَرْتَجِفُ خَوْفاً ، وَأَنا أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَدْهُوشاً ــ إِذْ خَرَجَتْ عَنْكَبَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الْغارِ ، وَوَثَبَتْ عَلَيْهِ فَحاوَلَ دَفْعَها عَنْهُ ؛ وَلٰكِنَّها أَمْسَكَتْ بِهِ ، وَخَطِفَتْ أَنْفاسَهُ .

وَفِى أَقَلَّ مِنْ خَمْسِ دَقائِقَ ، تَرَكَتْهُ جِلْدًا خاوِياً ! . . . »

١٧ ــ الْخاتِمَةُ

وَلَمَّا انْتَهَى « صَفاءُ » مِنْ قِراءَةِ هٰذِهِ الْمَأْساةِ ، حَزِنَ « صَفاءُ » وَأُسْرَتُهُ لِمَصْرَعِ الْعَنْكَبِ التَّاعِسِ ، وَتَأَلَّمُوا لِخاتِمَتِهِ الْمُفَزِّعَةِ .

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ مُتَعاقِبَةً ، وَلٰكِنَّ الْأُسْرَةَ لَمْ تَنْسَ هٰذِهِ الْقِصَّةَ الرَّائِعَةَ ، الَّتِى مَلَكَتْ نُفُوسَهُمْ ، وَسَحَرَتْ أَلْبابَهُمْ ، وَكَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ آفاقٍ كانَتْ مَسْتُورَةً عَنْهُمْ مِنَ الْمَعارِفِ وَالْعُلُومِ

القصة العاشرة : « النحلة العاملة »

محفوظات

قالَ «أَبُو نُواسٍ» يَصِفُ الْعَنْكَبَ :

وَقانِصٍ مُحتَقَـرٍ ذَمِيمِ ... كُدْرِيِّ اللَّوْنِ ، أَغْبَر ، قَتِيمِ
مُشْتَبِكِ الْأَعْجازِ بِالْحَيْزُومِ ... وَمَخْرَجِ اللَّحْظَةِ بِالْخَيْشُومِ
أَضْيَقَ أَرْضاً مِنْ مَقامِ الْمِيمِ ... أَوْ نُقْطَةٍ تَحْتَ جَناحِ الْجِيمِ
لَيْسَ بِقِعْدِيدٍ ،وَلا نَؤُومِ ... وَلا ـ عَنِ الْحِيلَةِ ـ بِالسَّؤُومِ
لا يَخْلِطُ الْهِمَّةَ بِالتَّنْوِيمِ

قانِصٌ : صائِدٌ ـ كُدْرِيُّ اللَّوْنِ : مُغْبَرٌّ غَيْرُ صافٍ ـ قَتِيمٌ : مائِلٌ إِلَى السَّوادِ .

الْأَعْجازُ : مُؤَخَّراتُ الْأَجْسامِ ـ الْحَيْزُومُ : الصَّدْرُ ـ مَخْرَجُ اللَّحْظَةِ : الْعَيْنُ ـ الْخَيْشُومُ : أَقْصَى الْأَنْفِ .

مَقامُ الْمِيمِ : الدَّائِرَةُ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْها رَأْسُ حَرْفِ الْمِيمِ .

الْقِعْدِيدُ : الْعاجِزُ الْكَثِيرُ الْقُعُودِ ـ النَّؤُومُ : النَّائِمُ ـ السَّؤُومُ : السَّرِيعُ الْمَلَلِ .

: هذا الْحَيَوانُ الَّذِى يَعيشُ مِمَّا يَصْطادُهُ ، تَحْتَقِرُهُ
ُ اللِّسانُ ، وَفِى لَوْنِهِ غُبْرَةٌ تَجْعَلُهُ أَقْرَبَ إِلَى السَّوادِ .
تَداخِلُ الْجَسَدِ ، حَتَّى إِنَّ صَدْرَهُ لَيَشْتَبِكُ بِمُؤَخَّرِ
عَيْنُهُ تَشْتَبِكُ بِأَنْفِهِ .
صَغيرٌ ضَئيلٌ ، حَتَّى لَتَرَى رَأْسَ الْمِيمِ أَوْسَعَ مِنْه .
لَيْسَ بِالْخامِلِ الْقاعِدِ ، بَلْ يَعْمَلُ وَيَسْعَى جاهِدًا ،
إِلَيْهِ الْمَلَلُ مِنْ طَلَبِ الْحِيلَةِ ، وَلا يَشْغَلُهُ النَّوْم
لْهِمَّةِ .
، الْعَنْكَبَ بِأَنَّهُ هُمامٌ ، دائِبٌ عَلَى الْعَمَلِ ، غَيْرُ مُتَراخٍ
بِالْواجِبِ عَلَيْهِ ، وَلا مُخْلِدًا إِلَى الْبَطالَةِ .

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ٧١٩٦
الترقيم الدولى	977 – 02 – 4180 – 6	ISBN

٧ / ٩٣ / ٤٣
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

مكتبة الأطفال

بقلم

كامل كيلانى

قصص فكاهية

١ عمارة . ٢ الأرنب الذكى .
٣ عفاريت اللصوص. ٤ نبهان .
٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
٧ حذاء الطنبورى . ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

١ بابا عبد الله والدرويش .
٢ أبو صير وأبو قير . ٣ على بابا .
٤ عبد الله البرى وعبد الله البحرى .
٥ الملك عجيب . ٦ خسروشاه .
٧ السندباد البحرى . ٨ علاء الدين .
٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

١ الشيخ الهندى . ٢ الوزير السجين .
٣ الأميرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
٥ شبكة الموت . ٦ فى غابة الشياطين .
٧ صراع الأخوين .

قصص شكسبير

١ العاصفة . ٢ تاجر البندقية .
٤ الملك لير .

٢و٠٠

أساطير العالم

١ الملك ميداس . ٢ فى بلاد العجائب .
٣ القصر الهندى . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أثينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ فى الاصطبل . ٤ جبارة الغابة .
٥ أسرة السناجيب . ٦ أم سند وأم هند .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ العنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

١ جلفر فى بلاد الأقزام .
٢ « فى بلاد العمالقة .
٣ « فى الجزيرة الطيارة .
٤ « فى جزيرة الجياد
٥ روبنسن كروزو .

قصص عر

١ حى بن يقظان . ٢ ابن

قصص تمثي

١ الملك النجار .

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
02887423

دار المعارف